خطبة الجمعة 8/ 12/ 2023م **24 جمادى الأولى/ 1445هـ**

(وظنّوا أنّهم مانعتهم حصونُهم من الله)

أ.د. محمد سعيد حوى

موضوع اليوم: حُسن الظنّ بالله!

وقد قال تعالى في وصفِ الصِّراع مع يهود في يوم بني النّضير: ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: 2].

وهذا حالُنا اليوم، وإنْ شاءَ الله يخيبُ ظنّ مَن يسيء الظنّ بالله، ويخيب ظنّ مَن تخاذَلَ وضَعُفَ، ويسيء ظنّ اليهود ومَن معهم.

ولا شك أنّ هذا متّصل بموضوع سبقَ قبل أسبوعين (أين الله مما يجري)، وفي حينها أكّدنا وتذاكرنا أنّ السؤال الحقيقي أين المسلمون؟!

مَعَ التّذكير أنّه سبحانه كما قال سبحانه: (ألا له الخلق والأمر)، وأنه قال لملائكته: (إني أعلم ما لا تعلمون)، وأنه كما قال سبحانه: (لا يُسأل عما يفعل)، وكما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: 4]، وأنّه فوق ذلك كله، قال: (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون).

وأنّه هو اللطيف الخَبير، العَليم الحَكيم، بيده مقاليدُ كلّ شيء، وأنّ هذه الدّنيا إنّما هي دار ابتلاء لا جَزاء؛ فلا نريد أنْ نكرر ما قيل، ولكن لنتعاملَ مع هذا الموضوع، حُسن الظنّ بالله.

أساس الفَهم، وصحّة الاعتقاد:

وأساس قضيّة حسن الظنّ بالله؛ إنّما ترجع إلى المعرفة بالله، والعِلم بالله، والإيمان بالله، ومعرفة أسمائه الحسنى، وكمالاته، وصفاته العُلا سبحانه!

فمن عرفَ ربّه؛ عظّمَهُ، وقام بحق، وأحسنّ الظنّ به، وخضع لله سبحانه!

ومن عرفَ أسماءه وصفاته، التي ذكرنا بعضها، خشعَ بين يدي الله؛ فازداد حبّاً لله، وازداد تعظيماً لله.

إنْ لم تُحسنّ ظنّك بالله لأجلِ وصفِه؛ فحسِّن ظنّك لأجلِ معاملتِه، فهل عوَّدَك إلا حُسناً، أو هل أسدى إليكَ إلّا مِنناً!؟

وقد كان القرآن وكذا النبي يعلمنا دائما حسن ثناء على الله، فها أنت تبدأ الفاتحة في كل صلاة بعظيم الثناء على الله، ومن الدعاءاللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ (أحقُّ ما قال العبدُ وكلُّنا لكَ عبد)، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ. وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ. اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ. وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ. لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ. أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نفسك" [مسلم]. اللهم انا نستعينك ....

ومعناه الاستغفار من التقصير في بلوغ الواجب من حق عبادته والثناء عليه، واللجوء إلى الله في الوقاية من كل عقوبة أو ذنب.

<u>وحقيقة حُسن الظنّ بالله</u>؛ هو التّحقق بمقامات الصَّبر والصّابرين، والرّضا، والتّوكل، والشُّكر، والصّديقيّة، والحُبّ؛ فكلّ شيء في الله يهون، وكلّ شيء من الله هو الخير المطلق، وإنّما كما قال تعالى: (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً).

الحقيقة مجرد طرح موضوع حسن الظن بالله إنما هو تغطية لمسؤولياتنا تجاه القضايا الخطيرة الكبرى التي تجري، وأين نحن منها، وعلينا أن نحاسب أنفسنا ، لا أن نرمي بالمسؤولية على آخرين ؛ فكأننا نقول لماذا سمح الله بذلك؟ لنهرب من المسؤولية، أو لتغطية جريمة المجرم العدو الصهيوني ومن وراءه.

ومِن ثمّ؛ ليس السؤال هنا عَن حسن الظنّ بالله؛ لكن السؤال أين 57 دولة مسلمة مما يجري في غزّة!

السؤال ما هو واجبنا؟ وأين نحن من سنن النصر والتمكين والعمل والجهاد والتضحية؟

وأين الأخذ بالأسباب؟

وأين محاسبة النفس؟ ماذا فعلنا وأين قصرنا وكم ذمنوبنا؟

لا نريد بطرح هذا الموضوع التغطية على المسؤولية وعلى جريمة المجرم أعني اليهود.

كما فعلنا مع الذين رفضوا الظلم فحملناهم المسؤولية

إذا كان بعض الناس يريد أن ينقل مشكلته؛ فيلقيها إلى الله، يريد أن يتهرب من الواجب والمسؤولية بمثل هكذا موضوعات؛ فإن هذا لا يخفى عن الله.

<u>لمحة في الموضوع:</u>

هنالكَ مَن يتحدّث عَن حُسن الظنّ بالله في سياق الخَوف والرَّجاء، وعَلاقة العَبد بربّهِ إذا أذنبَ فيرجو مغفرة الله ويخاف عقابه، وإذا عَمِلَ صالحاً يخاف ألّا يُقبَل منه ويرجو القَبول، في هذا الصدد دائماً يجمع العبدُ بين الخَوف والرّجاء؛ فلا يتّكل على عمله، ولا ينسبُ فضلاً لنفسه، ومعَ ذلك يرجو القَبول مِن الله، ويُحسِّن ظنّه بالله الرّحمن الرّحيم، وكذا إذا تابَ يعتقدَ أنّ الله هو التّواب الرحيم، والنّصوص في ذلك أكثر من أن تحصى!

لكن البعض يتواكل ويتّكل، فلا يتوب ولا يعمل صالحاً، ثم يقول أنا أُحسّن الظنّ بالله؛ فيُخشى على مثل هذا أن يمكر به، هذا فيما يتعلّق بحال الإنسان الفردي في علاقته مع الله.

لكن موضوعنا اليوم إنّما هو في حالِ الأمّة، وموقفها مما يجري في غزّة، وعلاقة ذلك بحُسن الظنّ بالله.

ولا أريد أن أدخل معكم في نقاش في موضوع حسن الظن بالله تفصيلاً؛ لأنّهُ إنْ كانَ مؤمناً فما عليه إلا أن يتذكر، وتلك العقيدة الحقة ولا شيء غيرها، وإنْ كان جاهلاً؛ فما عليه إلّا أن يتعلّم، وأما إن كان ملحداً جاحداً مشككاً؛ فهذا عندما تنزل به البلايا والمصائب؛ سيعلم أنّ اللهَ حقّ، وعندما تنزلُ به قارعةٌ لا يقوم منها؛ فسيعلم أنّ الله حَقّ ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ ﴾ [النور: 25].

وكيف لا نعلمُ ونتيقن ونُحسن الظنّ بالله، وهي عقيدةُ المؤمن كما في الحديث القدسي يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» [متفق عليه].

كيف لا نُحسن الظنّ بالله، هل تريدون أن نستعرض سير الأنبياء حتى نتيقن ذلك، ولن ننتهي.

وكيف لا نحسن الظن بالله؛ وقد دخل الناس في دين الله أفواجاً كما قال تعالى ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ [النصر: 2].

وقد صدق وعد الله الحق ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ [الصف: 8].

أتباع الأنبياء على طريق الأنبياء:

وقد يقول قائل كل ما مضى إنّما هي معجزات للأنبياء؛ فنقول: بل كلّ ذلك أيضاً لأتباع الأنبياء ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر: 51].

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنصُورُونَ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ [الصافات: 171 – 172].

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: 47].

ألم تكون فتوحات مصر، والمغرب العربي، والأندلس، والهند، والسند، وأندونسيا؛ كلّها بعد وفاة رسول الله ﷺ!

ألم يتحقق الحديث (زوى لي الأرض؛ فرأيت مشارقها ومغاربها وإن ملك أمتي سبلغ ما زوي لي منها) وحصل ذلك بعد وفاته ﷺ.

وكيف لا نُحسن الظنّ بالله؛ وتحققت بشارة النبي ﷺ في الأمة، خلال القرون واليوم (لن تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم؛ حتى يأتي أمر الله).

وكيف لا نُحسن الظنّ بالله؛ ونصرَ المسلمين في اليرموك، وكانَ أعداد الروم أضعاف أضعاف المسلمين.

وكيف لا نُحسن الظنّ بالله؛ وقد نصرَ المسلمين في حطّين (583هـ) التي تقع شمال غرب طبريا، بقيادة القائد المسلم، صلاح الدين المسلم غير العربي، على الصّليبيين، وَقَد كان جيشُ صلاح مِن المسلمين مِن العراق والشّام (سوريا، لبنان الأردن، فلسطين)، ومصر، ومَن لحقَ بهم من غيرهم مِن الترك والكُرد؛ يجمعهم الإسلام العظيم، على أرض فلسطين، وكان عدد الصليبيين لا يقلّ عن خمسة أضعاف المسلمين، والتي كان من نتائجها فتح القدس!

فكيف لا نحسن الظنّ بالله؛ وقد نصرَ المسلمين في سهل عين جالوت، في منطقة بين بيسان ونابلس، قربَ جنين، (658هـ) أي بعد سقوط الخلافة بعامين فقط، والتي كان من نتائجها انسكار شوكة المغول، ودخولهم في الإسلام، وهذه أول مرة تحدث أنّ الغزاة المحتلين للأرض يدخلون في دين القومِ الذين هُزموا في البداية على أيديهم، وكان جيش سيف الدين قطز من المسلمين من بلاد الشام ومصر.

وكيف لا نُحسن الظنّ بالله؛ وقد تحققت معجزة رسول الله ﷺ (لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ) والقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطيّة، وفتحت عام (857هـ) أي بعد (850) تتحق المعجزة النبوية.

ألم تهزم أفغانستان أعظم دولتين في هذا التاريخ المعاصر (أمريكا، والسوفيات)، واستمرت مدة كل معركة نحو من 20 عاماً!

ألم تُهزم أمريكا في العِراق!

وماذا نُعدد مِن نعم الله علينا التي لا تُعد ولا تحصى؛ سخر البلاد والبحار، والكون بما فيه، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: 18].

وكيف لا نحسن الظن بالله، ونحن نعلم ما أعد الله للمؤمنين من النعيم في جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وكيف لا نحسن الظن بالله؛ وهو الذي يكافئ الحسنةَ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ولا يُضاعف السّيئة؛ بل ويعفو عن كثير، ويستر الذّنوب، ويُجيب دعاء المضطر كما أراد وكيف أراد، ولكلّ منّا تجربته الخاصّة!

وليس آخراً؛ كيف لا نحسن الظن بالله؛ ونحن نرى ثبات أهلنا، وهذا الصمود المعجز، الذي لا يمكن أن يكون إلا بتثبيت من الله وتأييد من الله، ونصر من الله؛ أن تكون بقعة من الأرض لا تتجاوز مساحتها (365كم)، وعدد سكانها مليونين وربع؛ يقفون أمام أكبر دول في العالم (إسرائيل، أمريكا، بريطانيا، فرنسا، ألمانيا)، من حيث القوة العسكريّة، ودول أخرى تمدّهم؛ بعد ذلك نتساءل عن حسن الظن بالله!

أمّا الابتلاء؛ فهذا سنة الله في خلق ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: 4].

وكيف لا نحسن الظن بالله؛ حتى نتطهر من صفات المنافقين

فصة المنافقين: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ [الفتح: 12]

﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ [آل عمران: 154]

وقال (وتظننا بالله الظننا) ثم قال: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال: 49]

بينما المؤمنون:

﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: 249].

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب: 22].

والمطـــــلــــوب:

أنْ نفهمَ عَن الله مراده، وأنْ نقومَ بواجباتنا.

لماذا ابتُلي المؤمنون وسنة الابتلاء وأنموذج أعظم كما حدّثنا عنه في الأخدود؟

لماذا قُتِلَ أنبياء؟

لماذا أُصيبَ النبي ﷺ في أسرته وأهله، وأحبّ الناس إليه؟

لماذا يصبر نوح (950) سنة على قومه؟

ومِن ثمّ؛ ليس السؤال هنا عَن حسن الظنّ بالله؛ لكن السؤال أين 57 دولة مسلمة مما يجري في غزّة!

السؤال ما هو واجبنا؟ وأين نحن من سنن النصر والتمكين والعمل والجهاد والتضحية؟

وأين الأخذ بالأسباب؟

وأين محاسبة النفس؟ ماذا فعلنا وأين قصرنا وكم ذمنوبنا؟

لا نريد بطرح هذا الموضوع التغطية على المسؤولية وعلى جريمة المجرم أعني اليهود.

إذا كان بعض الناس يريد أن ينقل مشكلته؛ فيلقيها إلى الله، يريد أن يتهرب من الواجب والمسؤولية بمثل هكذا موضوعات؛ فإن هذا لا يخفى عن الله.